أنا – ربما – راجعت أكثر من خمسين رواية عن الإمام الرضا عليه السلام بمناسبة هذه الأيام، واخترت منها اثنتين أو ثلاثًا:

قال الإمام الرضا عليه السلام:

إذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله، إذا وقعت في مشكلة، توجّه بنا إلى الله.

هذه كلمة الإمام الرضا عليه السلام.

إذا كنت تبحث عن حلّ، إذا كنت تائهًا، إذا كانت مشاكلك كثيرة، إذا فقدت طرف الخيط، إذا كنت تائهًا تدور حول نفسك، فإن الله قد اختار هؤلاء الأنوار الأربعة عشر.

هم أفضل عباد الله، لهم مقام الاصطفاء: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، هذه منزلة الاصطفاء، دائرة الاختيار الإلهي، خاصة بمحمد وآل محمد.

فلا نكن غافلين عن هؤلاء الوسائط الذين جعلهم الله بيننا وبينه؛ وفي كلّ مشكلة، القرآن دواء، ولكلّ داء، دواء. والشاب، بطبيعته تغلي فيه الشهوة، لكنه يستطيع إدارتها، والقرآن ومعارف أهل البيت يعطونه الحل. إحدى الوصفات القرآنية لعلاج تشتّت الذهن، وتفرّق الأفكار، وهيجان الشهوات الذي يظنّ الإنسان أنه غير قابل للسيطرة أو الإصلاح، هي سورة النور.

انظروا إلى هذه السورة، فإنها تبدأ بهذه الموضوعات بالذات، إذا التفتّ إلى القرآن، وجدت فيه وصفة للخروج من هذا التشتّت الذهني والشهواني، ولكن الأمر يحتاج إلى متابعة ومداومة، يحتاج إلى الاستقامة، ويحتاج إلى الاهتمام المتواصل. حتى الآباء والأمهات الذين يقلقون على أبنائهم، أوصيهم بتلاوة هذه السورة، والالتفات إليها. يقول أحدهم: ابنتي – مثلاً – تخلّت عن الحجاب، أو: ابني لديه أصدقاء سيّئون، فأنا أُوصي بالاهتمام بهذه السورة المباركة. هذه السورة العجيبة تجمع شتات الحياة، حتى لأجل الأجيال القادمة. لكنها تحتاج إلى صبر واستمرار. ينبغي أن يكون هناك دوام في التلاوة والانتباه، حتى تصل إلى قوله تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، –آية النور في سورة النور.–

إذا وصلت إلى هذه الآية، وتأمّلت فيها، وتدبّرتها، وداومت عليها، أنت أمام سورة مدهشة!

تكررت فيها كلمة "نور" خمس مرّات، وهي تفاعلٌ روحيٌّ مع بركات الخمسة الطيّبة.

أولئك الذين أفنوا عمرهم في العبادة والتأمّل، ووضعوا رؤوسهم على رُكَبهم في التفكر، لم يكونوا عاطلين عن العمل! بل غيّروا انشغالهم، غيّروا همومهم، غيّروا وجهة تفكيرهم. اليوم، هناك من يقول:

أركضُ من الصباح حتى الليل، ولا أحصل على شيء، يا أخي، إذا أدرتَ نفسك بشكل سليم، فذلك يُخزَّن لك، إذا أنشأتَ صلةً بالله المتعال، فذلك يُخزَّن لك. العزلة والانفراد وحدهما لا يكفيان، بل الانشغال السليم هو المطلوب.

يُقال وكان مشهوراً بين أصدقاء المرحوم العارف آية الله السيد علي القاضي، أنه كان يُقال:

"المرحوم القاضي يحصل على الدنيا والآخرة معًا!، طبعًا هذا يُقال على سبيل المزاح، لكن الحقيقة أن هذه الشخصية العظيمة، كانت من مربي العلامة الطباطبائي، ومن المربين الكبار أمثال آية الله الشيخ بهجت. لم يكونوا أناسًا عاطلين ولا غافلين عن قضايا الحياة، بل كانوا أصحاب رأي ووعي وبصيرة.

وأنا – من هذا المقام – أودّ أن أقدّم اقتراحًا لأصدقائنا من طلبة العلوم وأهل البحث والتحقيق:

لمناسبة ولادة الإمام الرضا عليه السلام، لِمَ لا نبدأ ببحث وتحقيق حول هذه المسألة: لماذا المأمون العباسي – الذي كان يدير أقوى حكومة في عصره، والتي كانت تضمّ ما يقارب خمسين دولة – يختار الإمام الرضا عليه السلام لولاية العهد؟

هذا الأمر ليس خطًّا سياسيًا بسيطًا، بل هو يعكس وعي العباسيين بمكانة الإمام الرضا عليه السلام.

حتى الخليفة عثمان، قال ذات مرّة للإمام علي عليه السلام: "يا علي، وجودك يجذب الناس، كلّهم يتبعونك، إن كنت إلى جانبي، تجتمع القلوب".

الإمام الرضا لم يكن مجرد شخصية دينية، بل كان يمثّل حقيقة مختلفة، نوعًا آخر من القيادة.

تخيّلوا، نظام بني العباس كان أشبه اليوم بنظام آل سعود الحالي! هل يسمحون لأحد بالدخول إلى مراكز القرار؟! لكن أسلوب الإمام الرضا عليه السلام في التعامل أجبرهم على دعوته لتولّي ولاية العهد.

وقد تعلمون أنّ المأمون لم يُسلّم حتى لأخيه إمارة الأمور، لكن لماذا وافق على الإمام الرضا؟ لأنها حقيقة تمتدّ من أمير المؤمنين حتى الإمام العسكري عليهم السلام. أيها الباحثون، هذا موضوع جدير بالتحقيق.

لكلّ إمام خصوصية في زمانه، ولكلّ فترة ظروفها، لكن الذكاء وطريقة الإدارة النبويّة كانت حاضرة دائمًا ، الإمام الرضا عليه السلام كان متميّزًا، محبوبًا، وقريبًا من الناس، وهذه المحورية فرضت نفسها حتى على أقوى الطغاة. هل استطاعوا أن يحدّوا من أثر الإمام الرضا عليه السلام؟

لا، لأنّه يحمل حقيقة سماوية، إدارة إلهية، وسلطانًا ربّانيًا. هذه الحقيقة هي التي تثبّت الإمام، وتجعله يتجلّى رغم كلّ محاولات التقييد. رغم أن كثيرين من أتباع المذاهب الأخرى يأتون ويختارون الإمام الرضا عليه السلام.

لا تظنّوا أنّ هذا فقط لأنّه من أبناء رسول الله، فهناك أيضًا أبناء زيد بن علي الشهيد، وهم أيضًا من ذرية رسول الله، لكن الفرق أن هؤلاء الأربعة عشر المعصومين شيء آخر.

الإمام الرضا عليه السلام كان صريحًا في أقواله، واضحًا في عقائده، والعدوّ – رغم ذكائه وحنكته في إدارة الدولة – كان مضطراً للرضوخ له.

في مقام ولاية علي بن موسى الرضا عليه السلام، حاولوا بكلّ وسيلة أن يُظهروا الأمر وكأنّه شكليّ،

فالحكومة كانت عائلية، وكلّ بني العباس تقريبًا كانوا معارضين، ومع ذلك، ما هذه الشخصية؟! هذا العظيم، من أيامه في المدينة وحتى حين انتقل إلى طوس، كلّ مرحلة من مراحل حياته تستحقّ أن تُكتب في كتاب مستقل.

لقد كان نموذجًا في إدارة شخص موصول بالله، له مقام الاصطفاء، ومقام التواصل الراقي مع الناس،

ولم يتراجع قيد أنملة عن عقيدته الإلهية، حتى إن العدو لم يجد أمامه سوى الاستسلام.

وحين لم يستطيعوا مواجهته علنًا، توسّلوا بالطرق التي استُشهد بها أجداده وذريّته من أهل البيت.

نهج أهل البيت عليهم السلام مسلكٌ متّصل بالسماء، منسجم مع الله، ومتوائم مع رضاه، ومقامهم لا يملكه أحدٌ غيرهم، لا أحد يملك هذا الملاذ الآمن مثلهم. اليوم، المذاهب الإسلامية كثيرة،

والعلماء الربانيون كثيرون، والقبور المباركة كثيرة، لكنّ الجميع يقصدون الإمام الرضا عليه السلام.

تلك العجوز البسيطة أو الشيخ الكبير، ينزل رأسه، يخرج من الفندق ويتوجّه إلى الحرم، ليحدّث الإمام الرضا عليه السلام بهمومه، ويأخذ الجواب، ويأخذ الجواب، ويأخذ الجواب.

الشيخ الصدوق – رضوان الله عليه – كان في الريّ، وكان من المتعارف حينها أن العلماء إذا أرادوا السفر البعيد، ينسّقون مع الحاكم.

فذهب الصدوق إلى الحاكم، وقال له: "أودّ السفر إلى خراسان للزيارة".

وكان الحاكم سنّيًا، فقال له: "لقد سمعت أن علي بن موسى الرضا باب الحوائج، سأسمح لك بالسفر، بشرطٍ واحد: لي حاجة أقف عند بابها منذ سنوات، أرجوك، إذا وصلت إلى مشهد، ففي أول زيارة لك للإمام الرضا، صلّ ركعتين بنيّة قضاء حاجتي".

الشيخ الصدوق وافق، وسافر – وكانت الرحلة تستغرق شهرًا أو أكثر - ثم عاد.

وعندما رآه الحاكم، قال له: "حاجتي قد قُضيت"! لكنني دوّنت التاريخ: خروجك، سفرك، دخولك، صلاتك. فلنقارن، لنتأكّد، فاكتشفوا أن الحاجة قُضيت في نفس اليوم الذي دخل فيه الشيخ الصدوق حرم الإمام الرضا عليه السلام وصلّى.

مهما كنت، ومن كنت، حين تكون روحك صادقة، وتتصل بهم، فسيُستجاب لك.

قال الإمام الرضا عليه السلام:

"إذا نزلت بكم شدّة فاستعينوا بنا على الله. وهناك رواية أخرى، لا أستطيع أن أتركها دون أن أقرأها...

إن أعطيتك مفتاحًا، مفتاحًا ليس من عندي، أتملكه؟ ألا تسمعون ما قاله الإمام الرضا عليه السلام؟

قال: "من لم يقدر على ما يُكفِّر به ذنوبه، فليكثِر من الصلاة على محمد وآل محمد، فإنها تهدم الذنوب هدمًا".

إذا كانت عقدة الحياة وذنوبك قد تعقّدت إلى درجة أنك بدأت تفقد الأمل من نفسك، ولا تجد مخرجًا، فأكثِر من الصلاة على محمد وآل محمد.

في ثقافة أهل البيت لا وجود لليأس. والله يعلم أن اليأس من الشيطان.

كلّ ما في هذا الطريق هو رجاء ورحمة ، لماذا؟ لأنّ هؤلاء العظام أطباء.

في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ورد:

"طبيبٌ دوّارٌ بطبّه" الطبيب إذا جاءه مسموم، لا يطرده، لا يقول له: "لماذا أكلتَ السم؟"

ليس وقت العتاب، بل وقت العلاج والإحياء. الإمام الرضا عليه السلام كان يحنو على كل من جاءه، حتى ذلك الذي لا يجرؤ أن يدخل عليه من شدّة ذنوبه. الإمام يمدّ يده عليه بالرحمة، فهو طبيب، رحيم، عزيز، يحبّ الجميع. مباركٌ لكم أيام "عشرة الكرامة

ومن الروايات الأخرى التي أحبّ أن أذكرها، رواية عن الإمام الرضا عليه السلام بشأن أخته السيّدة فاطمة المعصومة سلام الله عليها، التي وُلدت في أوّل شهر ذي القعدة، وبها تبدأ عشرة الكرامة.

هذه السيّدة الجليلة، العالِمة، (وقد تحدثت عنها كثيراً، ولكن سأختصر هنا)،

قال عنها الإمام الرضا عليه السلام: "من زارها فله الجنة".

من زار أختي معصومة، فله الجنة.

هذا مقام الاصطفاء، مقام الأنبياء، مقام أهل البيت عليهم السلام، وأنا أقول هذا مستنداً إلى آيات عديدة، وتفاسير كثيرة، وروايات متعددة، وأرى أن الاصطفاء له دوائر متعددة ومراتب مختلفة.

انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، في شهادة عمّه حمزة، مع أنه كان عمّه، لكنّه بكى عليه حتى أغشي عليه مراراً. العبارة التي نقرؤها للإمام العباس: "يا كاشف الكرب عن وجه الحسين"،

هي أصلاً قالها رسول الله لأول مرة لحمزة: "يا عم، يا كاشف الكرب عن وجه رسول الله".

هذا الاصطفاء له دوائر ثانية أيضًا. من هذه الدوائر الثانية:

حضرة قمر بني هاشم (أبو الفضل العباس)، ثمّ السيّدة زينب الكبرى، ثمّ السيّدة أم هانئ.

سبق أن ذكرت هذا، وأكرّره هنا: السيدة أم هانئ، ابنة أبي طالب، وأخت أمير المؤمنين من الأب والأم، كانت مسؤولة عن إيصال المعلومات الأمنية لأهل البيت.

في فتح مكّة، لجأ بعض الناس إلى بيتها وكانت قد انقطعت عن رؤية أخيها أمير المؤمنين لسنوات،

فجاء عليٌّ عليه السلام، مقنّعًا بنقاب المجاهدين، يلاحق بعض من احتموا ببيتها. فأمسكتْ بساعِده وقالت: "لن أسمح لك، هؤلاء دخلوا بيتي وهم في أمان". قالت: "أنا أذهب وأتكلّم مع رسول الله بنفسي". وكانت قوة ساعد الإمام علي عليه السلام مذهلة، لدرجة أنّ عضلات ساعده اختلطت بعضلات ذراعه، حتى لم يُعرف أين ينتهي الساعد ويبدأ الذراع. فظلت آثار يد أم هانئ على ساعد الإمام مدة طويلة. ثم أقرّ رسول الله بأمانها، وقال:

"إذا أجارت أم هانئ أحداً، فلا يُمسّ".

وقد خطبها النبي صلى الله عليه وآله بعد وفاة زوجها، لكنها اعتذرت وقالت: ″يا رسول الله، عندي أولاد صغار، ولا أستطيع أن أكون دومًا في خدمتك"، فأقرّ النبي اعتذارها. حتى رحلة المعراج بدأت من بيت أم هانئ.

هؤلاء من الدائرة الثانية للاصطفاء، حتى نصل إلى السيّدة فاطمة المعصومة سلام الله عليها.

هذه السيدة الطاهرة التي تبدأ بها عشرة الكرامة، وتنتهي بميلاد الإمام الرضا عليه السلام،

عليها وعلى أخيها أفضل التحية والسلام. أقول في خلاصة كلامي:

كتبتُ ذات مرّة بيتًا من الشعر فيه هذا الشطر:

"الليلة، على هذه المائدة، لا يوجد (لا يوجد)".

أي: لا يُقال ″لا يوجد لدينا″، لأن كلّ شيء موجود!

الليلة، على مائدة الإمام علي بن موسى الرضا، الكلّ حاضر، وكلّ شيء مُتاح.

وإذا استطعتَ أن تُنشئ هذه الصلة، هذا الرابط، في عشر الكرامة، فأنت على خير عظيم.

بل لا يجوز لأحد أن يقول: ″لا أستطيع أن أتّصل بهم". حتى لو بنسبة 1٪ فقط أنشأت الاتصال، فهي عظيمة. نحن أحيانًا نشعر أن الرابط لم يتم، لأنّ النسبة ضئيلة، لكن اليد التي تُرفع نحو السماء، نحو الله، أو تُمدّ نحو الإمام الرضا أو السيّدة المعصومة، لا تُردّ خالية.

ربما يُقال لك: "سنعطيك الأفضل"! لا أريد أبدًا أن يكون في قلب أحد شيء من اليأس.

تذكّر أن هؤلاء العظام، سادة الخلق، وهم بأنفسهم قالوا: "إذا نزلت بكم شدّة، فاستعينوا بنا على الله".

لا يوجد انسداد. ولا طريق مسدود. أما التفاصيل، وكيفية إدارة الصلة، أو ما يحمله كلّ إنسان من مخزون ديني، واستعداد، وحال... فهناك موضوعات كثيرة يمكن البحث فيها لتقريب الطريق.

لكن الشيء الأكيد: اليد لا ترجع فارغة. كلّه رجاء، كلّه رحمة، كلّه عناية، كلّه لطف.